

ملاح الشخصية اليهودية في رواية (عناق الأفاعي) لعز الدين جلاوي

The characteristics of the Jewish personality in the novel "The Embrace of the Snakes" by Azeddine Djlaouji.

* حمزة بوزيدي

Hemza Bouzidi

المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف-ميلة (الجزائر)

University Center Abdelhafid Boussouf – Mila (Algeria)

bouzidi.h@centre-univ-mila.dz

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/10/04

تاريخ الإرسال: 2024/09/15

ملخص البحث

نستهدف في هذا المقال النقدي استخلاص ملامح "الشخصية اليهودية" في رواية "عناق الأفاعي" لعز الدين جلاوي، من خلال ضبط مقوماتها الشكلية وعناصر بنائها، مع مراعاة مرجعيتها التاريخية وفق الضرورات السردية، معتمدين في ذلك على التفكير وبعض آليات المنهج السيميائي، لتحديد خواصها الدلالية. وعلى هذا الأساس نطرح الإشكالية التالية: فم تمثّل أبعاد الشخصية اليهودية؟ ولقد خلّص المقال إلى أن الرواية قد استعادت نوعاً من أدبيات أوروبا، خاصة "شيطنة الشخصية اليهودية"، وإبراز محاورها في تفكيك الأنظمة والمهمنة الإيديولوجية، وفكرة الاستعلاء، والنقاء الجنسي، لتتجلى بذلك "العبقريّة اليهودية" في اشتغال موقع فاعل وخلق بنية الصراع، وتوجيه مسار السرد. الكلمات المفتاح: شخصية يهودية، مرجعية تاريخية، تفكيك، هيمنة، إيديولوجيا.

Abstract :

In this critical article, we aim to extract the features of the "Jewish character" in the novel "The Embrace of the Snakes" by Azeddine Djlaouji, by analyzing its formal components and structural elements, while considering its historical reference in accordance with narrative necessities. We rely on deconstruction and some mechanisms of the semiotic approach to determine its

semantic properties. Based on this, we pose the following question: What are the dimensions of Jewish identity?

The article concluded that the novel has reclaimed a kind of European literature, particularly the "demonization of the Jewish character," highlighting its centrality in dismantling systems and ideological dominance, the idea of superiority, and sexual purity. This reveals the "Jewish genius" in actively shaping the structure of conflict and directing the course of the narrative.

Keywords: Jewish character, historical reference, deconstruction, dominance, ideology.



مقدمة:

تشتغل رواية "عناق الأفاعي" للروائي الجزائري "عز الدين جلاوي" على إعادة قراءة معمقة للتاريخ الموازي للكفاح الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم، دون إغفال التاريخ الرسمي؛ أين تم المزج بينهما لإظهار الوجه الحقيقي للأحداث، ولعل هذه الجزئية هي ما تمنح للرواية -بصفة عامة- القدرة على سرد المغيب والمستور من الوقائع، وقد قُسمت الرواية إلى ثلاثة أقسام رئيسية موزعة على الشكل التالي:

✓ القسم الأول: عن فترة الخيانات (بين بعض رجال السلطة واليهود وجنرالات الجيش الفرنسي) وسقوط الدولة العثمانية في الجزائر.

✓ القسم الثاني: مرحلة دخول الاحتلال والصراع الثقافي، النفسي، والسياسي مع الأمير عبد القادر، وجنود الخفاء من منظمي الثورات الشعبية.

✓ القسم الثالث: فقد جاء عن تحول المقاومة إلى الصحراء الجزائرية بقيادة أحمد بوزيان، حسين المكحلي، وغيرهم من قادة أحمد باي.

تم تسليط الضوء على دور المقاومة الشعبية في الدفاع عن الوطن، من خلال نماذج لشخصيات مقتبسة من الوسط الشعبي الجزائري، رفعت لواء الجهاد على مستويات سرية، أسهمت في ثبات المقاومة وحمودها لفترات طويلة قياسا بوسائلها المحدودة مقارنة بحجم عتاد الجيش الفرنسي. إنها شخصيات لم تأخذ حظها الكافي في كتب التاريخ الرسمي.

ضمن هذا السياق، احتلت الشخصية اليهودية مساحة واسعة من السرد، باعتبارها فاعلا رئيسيا في ديناميكية الحدث التاريخي. لقد رسم الروائي للشخصية اليهودية صورة شاملة مركبة من كافة الجوانب التاريخية، السياسية، النفسية، الدينية. وهذا ما دفعني لاختيار الموضوع، رغبة في تحديد إطار هذه الشخصية الهامة سواء تاريخيا أو سرديا، والكشف عن تقنيات مشروعها السردية.

تتجلى مركزية العنصر اليهودي بداية من عنوان الرواية، فاليهود هم أحد الأفاعي المتعاقبة، عناق المصالح الاقتصادية والسياسية؛ إذ تعددت صور العناق، لكن الثابت منها في كل صورة هو شخصية "كوهين" اليهودي¹، فقد كان يستقبل "إبراهيم آغا" بالأحضان، مؤهبا إياه بتعيينه مكان الداوي حسين إن نجحت خطة الاحتلال، وفي نفس الوقت يعانق جنرالات فرنسا بنفس الحرارة، لضمان هيمنته الاقتصادية على التجارة المحلية، ويفعل ذلك مع أتباعه وجواسيسه، اليهودية "آرييل"، و"مدبب الأنف" من قبائل الجزائر. بطريقة خفية غير مباشرة لا تثير الشكوك والفرضيات، بالإضافة لتقديم الدعم المالي، والوعود الكاذبة لاستدراج القادة العثمانيين/الجزائريين، وإغرائهم بتقلد المناصب العليا وبسط الهيمنة على دواليب الحكم.

بناءً على ما سبق ذكره، لا نستهدف في هذا المقال تقصي مفهوم وتاريخ اليهود الممتد في الزمن، ولا اجترار مفهوم الشخصية الروائية في الاتجاهات النقدية الحديثة والمعاصرة، فقد كتب عنها الكثير من وجهات نظر متعددة، وإنما نحاول ضبط ما أمكن من خصائص ومقومات "الشخصية اليهودية" ودورها في دفع عجلة الأحداث، خاصة في ظل التماس بين الصورة التاريخية، وإعادة تشكيلها داخل نطاق النص السردية انطلاقا من الموقف الروائي الراعي لرفع سلطة التهميش والتعتيم الممارسة على الجنس العربي مقابل تبجيل وتقديس صورة الآخر غير العربي.

ويمكن أن نناقش هذا الاقتراح انطلاقا من الإشكالية التالية: فيم تتمثل أبعاد الشخصية اليهودية في نطاق جدلية التاريخ/السرد؟ هل انطبقت السمات الشكلية على منطق السرد من حيث الوظائف والأدوار وأثرها على مسارات السرد المتضادة؟ ما هي أهم غاياتها ومشارعها على امتداد فصول الرواية؟ وإلى أي مدى استطاعت تجسيد العبقورية اليهودية في إنتاج مكانة هامة في ظل الشروط التاريخية المأزومة؟.

أولا- العلامات الوصفية للشخصية اليهودية:

يرتكز التحليل في هذا العنصر على صفات الشخصية، لنستطيع فيما بعد تقييم انعكاس الصفات على منطق الأفعال، فالوصف إذن، ينطلق من الداخل إلى الخارج، وعليه نُفصل في الجدول الآتي العلامات الشكلية الخارجية: (الشكل، اللباس، الملامح) والداخلية: النفسية، العقلية (مستوى الذكاء، التفكير، المزاج ...) للشخصية الرئيسية اليهودي "كوهين" وشخصية "آرييل" الثانوية:

الأبعاد	الشكلية	العقلية	النفسية
شخصية اليهودي كوهين	متوسط القامة، يدين، لامع الصلعة، ص 77، مد يده إلى قبعته، يذت رقبتة أغلظ أنفه العقلطح، يعدل قلنسوته ص 206.	بعد نظره في حذر ص 92، عسكري خبير ص 95، موسوعة أنت سيد كوهين ص 497.	تخفس بعمق وانثشا + ص 91، قالها كوهين ص 95، بتعال وهو يشبك يديه ص 117، امتزج على ملامح كوهين فرح ص 170، قهقهه منثشيا ص 206، أيها اليهودي الجشع ص 207.
اليهودية آريئيل	حباها الله من جمال.	ذكاء	شجاعة، إخلاص، وفاء.

قدم الروائي بناءً لشخصية "كوهين"، يتناسب مع المرجع من جهة ومع الخيال العام للجنس اليهودي من جهة أخرى، وذلك بهدف الإيهام بواقعيته. ونلمح نوعاً من التطابق بين صفات الشخصية، ووظيفتها في نطاق السرد، ف(الحذر، والصلع، والمكر، والدهاء...) توافق موقعها الوسيط بين خطاب الشخصيات الأخرى، الفرنسية، التركية، العربية. ودورها في تعديل مسار السرد، نحو رغباتها الخاصة.

من المنظور السيميولوجي، تعد شخصية اليهودي "كوهين" من الشخصيات المرجعية؛ أي أن لها إحالة في الواقع التاريخي، يتم التعرف عليها بالتعرف على تاريخها المعطى مسبقاً، ويكمن دورها، حسب الباحث "سعيد بنكراد"، "في إرساء النقطة المرجعية المحيلة على النص الثقافي/الإيديولوجي (الشفوي أو المكتوب)"²، وبالتالي فالروائي يتعامل مع مادة تاريخية وفقاً لمقتضيات التخيل الروائي؛ فقد يدخل بعض ضروب التغيير الجديدة على الشخصية الروائية لمراعاة سياق الحدث السرد، وعلاقات الشخصية مع باقي الفواعل ضمن شبكة السرد المقترحة.

استنادا إلى ملامح شخصية "كوهين" وأربئيل" والسياق السردى المقترح داخل الرواية، يمكن استعادة بعض ملامح وصف أدبيات أوروبا للعنصر اليهودي، خاصة مع شكسبير ودوستويفسكي، اللذان عمدا إلى "شيطنة اليهود" في إنتاجهم السردى. ولعل هذا النسق من الوصف يتجلى -هاهنا- في تعليق الدوق "دومال" الفرنسى على ذكاء اليهودي "كوهين" بقوله: "أنت والله إبليس، كيف فطنت لهذه اللعبة"³. إن إطلاق صفة إبليس على اليهودي، ناتج عن تشابه في الأفعال بالدرجة الأولى، من ناحية الغواية، الغدر، الوعود الكاذبة، ومختلف الصفات السلبية الذميمة. كما أن حركة اليهود داخل أوروبا لا تختلف كثيرا عن نظيرتها في البلدان العربية، بل يكمن الاختلاف في الضغوط المفروضة على اليهود، فهي أقل جِدّة في المشرق.

ثانيا- من الماهية إلى القصة:

شهد النص الروائي تدرجا في السرد يُعبر عن النقلة التي أحدثها الراوي من مستوى العلامات الخاصة باليهودي "كوهين" إلى مُستوى قصته، منتقلا بذلك من علامات الماهية إلى منطق الفعل، وإسقاط العلامات (الحذر، الخبرة، الجشع...) على الأفعال، وتبرير التحولات المفصلية القائمة على العبقورية اليهودية، ومن أهم الحركات اليهودية المقترحة على صعيد الحدث، ما يلي:

1-اليهودي ومنطق الاندماج:

يمتلك اليهود قدرات فائقة وسلسلة منقطعة النظير في الانصهار بالمجتمعات التي يُقبلون عليها، فمنذ الهجرات الأولى للعنصر اليهودي إلى شمال إفريقيا، وجدوا مناخا صالحا للتجارة والاستقرار في ظل التسامح الكبير للدول العربية الإسلامية مع الجاليات والاختلاط الثقافي. يتضح ذلك على لسان "كوهين" عندما أقدم على زرع الفتنة، وتشجيت دعائم الحكم العثماني في الجزائر، يقول: "والله لولا حب فرنسا وأهلها ما أقدمت على هذا الصنيع، عشنا قُرُونًا في هذه الأرض آمنين سالمين...ولكن..."⁴. تؤكد هذه الحقيقة المصادر التاريخية، فرغم بعض الحقب التي شهدت بعض التضييق على الجاليات غير العربية، "لم يرى اليهود ما رآه في أوروبا، بل إنهم عاشوا وما زال بعضهم بوصفهم جزءا من الحياة الاجتماعية والثقافية"⁵. فالأسباب الخارجية كانت مواتية لتحقيق الانسجام والتوطن.

من ناحية أخرى تتعلق فرضية الاندماج بعوامل داخلية كامنّة في نفسية اليهود، فهم أقدر الأجناس على مساهمة التحولات، والتعايش مع الظروف المتجددة، يتضح ذلك عن سؤال "الدوق دو روفينو" عن قرابة الشبه بين اللباس اليهودي والجزائري. رد عليه "كوهين" قائلا: "نلبس في كل بلد لبوسها، نحن قلة ويجب أن نتأقلم"⁶. في مقابل استحالة اندماج الأجناس الأخرى في العنصر اليهودي.

تناسبت هذه الميزة الاندماجية خاصة مع فترة حكم الأمير عبر القادر، الذي يُغلب مبدأ التعارف والحوار والانفتاح بدل الإقصاء والتنابد، يُصرّح بذلك "كوهين" قائلا: "الحقيقة كان طيبا سمحا بل وحتى

مسكيننا وهو يفتح ذراعيه لكل أبناء المدينة على اختلاف مللهم ونحلهم"⁷. مما جعل اليهود يتحولون من البحث عن الأمن والاستقرار إلى البحث عن الثراء والسيطرة والفساد.

تظهر العقلية الاندماجية لليهود في سرعة تقبلهم للنظام الاستعماري الجديد، مع استقبال فرحة اليهود بسقوط الدولة العثمانية، ودخول الاحتلال الفرنسي للجزائر، الذي كان لـ "كوهين" المساهمة فيه، فقد قص على الجنرال "هيريون" مسيرته الطويلة في خدمة فرنسا، "...حين ساهم بفاعلية في إسقاط العاصمة والاستلاء عليها"⁸. ومن هنا يظهر أن الاندماج لدى اليهود هو اندماج مصالح، واندماج انكفاء على الذات، وليس اندماج تفاعل وانفتاح على الآخر العربي أو الأوروبي.

يؤكد هذه الميزة الكاتب الفرنسي ARSENE BARTHEUIL في حديثه عن موافقة الاحتلال لرغبات الجالية اليهودية، وسرعة اندماجهم مع الوضع الجديد، بقوله: "اليهود هم الأكثر جرأة، قاموا بتجهيز شرفات منازلهم، دون أن يبدو مندهشين من المشهد الجديد الذي ظهر لأعينهم"⁹. معلنين قبولهم الضمني لمساندة الفرنسيين ضد العرب المسلمين والأتراك، رغم الحرية التي كانوا يتمتعون بها.

2- خطاب المؤامرة ونوايا التملك:

يظهر اليهود على ساحة أحداث الرواية بداية من الصفحة 76، مع شخصية "كوهين"؛ أين عقد اجتماعا سريا مع "إبراهيم آغا" صهر "الداي حسين"، ومبعوث فرنسا "فيليب"، تم فيه التوقيع على بعض الوثائق، مع حث اليهودي "كوهين" لـ "إبراهيم آغا" على الإطاحة بـ "يحيى" قائد الجيش، وخدمة مصالح فرنسا العسكرية، ومصالح اليهود التجارية/الاقتصادية. يخاطب إبراهيم آغا قائلا: "المهم أن لا تمدوا عيونكم أنت وجيشك من أبنائك إلى محاصيل القمح والقمح، العهد بيننا أن تضل تحت تصرفي"¹⁰، في هذا الصدد، لخص الكاتب "عبد الوهاب المسيري" شخصية وأفعال اليهود، ومن مما ورد في ذلك، قوله: "يتسم اليهود بالشر والمكر والرغبة في التدمير... هم الذين أسقطوا الدولة العثمانية"¹¹.

استغل اليهود الوضع العام المتدهور للدولة العثمانية منذ نهاية القرن 18 في المضاربة وتحقيق الثراء. هذه السياقات، مكنتهم "تدريجيا من التغلغل في مراكز اتخاذ القرار ومراقبتها وحتى استغلالها لمصالحهم بتواطؤ بعض الإطارات السياسية العليا للنظام العثماني الجزائري"¹². مستغلين ثقة الحكام العثمانيين في الجالية اليهودية، من منطلق التسامح مع الاختلافات الدينية والعرقية.

في حيلة ذكية أخرى، وهب اليهودي "كوهين" جارية يهودية باسم مستعار على أنها مسلمة، مهمتها التجسس على الداي وقراراته واجتماعاته. لتتحول بعد دخول فرنسا إلى الأراضي الجزائرية إلى تمثيل دور عشيقة للجنرال الفرنسي الدوق "دو روفيجو". ولعل هذه الأدوار الحساسة تتناسب مع وصف الشخصية (جمال، ذكاء، شجاعة...) ما يؤكد الدور الفعال لليهود في ضرب استقرار الدولة العثمانية، عن طريق ألعاب

المكر والخديعة، والمؤامرات داخل دواليب الحكم، وإغراء الحكام العرب المعروف عليهم ميلهم إلى اللهو والمجون والجنس دون التفكير في العواقب الوخيمة لذلك.

كل هذه المناورات السياسية تأتي بهدف حماية المصالح الشخصية، وكذلك تجسيدا لرغبات التملك، فلقد حاول "كوهين" استرجاع قصر "علي القعلي"، ولو عن طريق دفع الأموال، لأنه في اعتقاده، وحسب الروايات اليهودية، كان ملك لليهود، وبالتالي فهذا الأرشييف السردى، هو محاولة لاستعادة الهوية الضائعة على زعم اليهود، خاصة وأن هذا المكان ذو رمزية دينية، يقول السارد عن "كوهين": "... إذ علم من روايات مختلفة أن مكان القصر كان كنيسا يهوديا صغيرا، أقامته ثلاث عوائل في منخفض من الأرض لممارسة العبادة"¹³. ويؤكد في سياق آخر أطماع السيطرة بقوله: "لن يكون الكنيس إلا معلما عظيما أجعل منه محجا لكل يهود هذا الوطن، والأوطان المجاورة"¹⁴. رغم جشع اليهودي للثراء والتملك، إلا أنه لا يحيد عن مهمته الرئيسية في خدمة اليهودية ومعلم ورموز اليهود الدينية.

لا يكتفي كوهين باستعادة الفضاء اليهودي، بل ينتقل لفكرة تملك المزيد من الفضاءات والثروات، يقول: "حلمي أن أضع يدي على حقول الزيتون هذه، وحتى حقول القمح التي تنبسط أمامنا"¹⁵. وفي هذا الخطاب تكريس لفكرة الجشع التي يتصف بها اليهود منذ القدم.

من خلال وصف الحضور اليهودي، في تفصلات الحدث السردى، نلمح مسارا تصاعديا سواء في خطاب الشخصية (خطاب التقرب من الحكام، خطاب التفرقة والتشتيت، خطاب التعاون والمصالح المشتركة) أو في خطاب الرغبة والفعل (رغبات الهيمنة الاقتصادية، التوسع وامتلاك العقارات) مما يوحي بأن مشروع الشخصية اليهودية لم يكن من قبيل الصدف والعشوائية، وإنما عبر تخطيط مُحكم.

3-مساندة الأنظمة الغالبة:

يُعد الانحياز لمصاف الغالب سمة ثابتة وعلامة مميزة للجالية اليهودية تحت شعار "عاش الملك، مات الملك"، ومرد ذلك إلى التكامل بين منطق التفكير، ومنطق الرغبة؛ فاليهودي لا يطمح للانصهار في الفضاء الجديد من أجل فرضية العيش فقط، بل لرغباته الدفينة في السيطرة والتملك، ولا يتأتى له ذلك إلا بالتحول السلس وفق ما تمليه المصلحة الفردية. من منطلق وهم الأفضلية العرقية. ولقد قدم مجموعة من وجهاء اليهود تقريرا إلى ملك فرنسا "نابوليون بونابارت" يقترحون المساعدة ويتعهدون بأنهم سيكونون "معاول هدم في جسم الدولة العثمانية، وجسور حضارة للثورة الفرنسية ومبادئها في تلك المنطقة المتخلفة من العالم"¹⁶. وكل هذا تحت شعار "مزيديا من الحروب، مزيديا من القروض والمضاربات، مزيديا من الأزمات المالية"، مما ينتج عنه الاستلاء على مراكز مهمة في الدولة وحماية المصالح.

يظهر ذلك من خلال تأييد "كوهين" لعملية القتل في ساحة المسجد العتيق، حيث علق على المشهد قائلاً: "هكذا أفضل، لابد من تفريغ المدينة ليسهل الاستيلاء عليها"¹⁷. يُوضح المقطع السابق حقد اليهود على العرب والمسلمين؛ أين يُقدم "كوهين" قبل كل معركة على نسج خطط تخمينية، لإبادة الأبرياء والضعفاء، ليصف بكل القيم الإنسانية، في سبيل المآرب الذاتية.

ومن دلائل ذلك، التخطيط للقضاء على الأمير عبد القادر، "شبك كوهين أصابعه وغرق في التخطيط للمعارك القادمة التي يجب أن تكون حاسمة مع الأمير عبد القادر"¹⁸؛ إذ لا يتوانى جنرالات فرنسا في الاستعانة بخدماته خاصة في التخطيط والتعرف على البنية العقلية والنفسية للفرد الجزائري والعثماني، كونه أقدم من الاحتلال دخولاً إلى الأراضي الجزائرية، كما أنه تدرج في كل طبقات المجتمع في رحلة الثراء، واحتك بالشعب الجزائري البسيط، وبالقيادات العثمانية ورجال السلطة.

يؤكد "كوهين" للجنرال الفرنسي "بورمون" أهمية العنصر اليهودي في دعم النظام الفرنسي، والتغلب على المقاومة الشعبية، يقول: "نحن في الخدمة، لا يمكن أن نتقدموا سريعاً إلا بنا، نحن أدرى بهذه الأرض"¹⁹، فالعبقريّة اليهودية تتجلى في تسريع وتيرة القضاء على نظام الأمير عبد القادر الجزائري. ثم إن الخطاب في هذا المقطع، وإن كان في شكل طلب تقديم مساعدة للعنصر الفرنسي، إلا أنه يحمل في طياته إشارة إلى الأحقية اليهودية بالاستحواذ على الجزائر، انطلاقاً من عاملي أسبقية الوجود في الفضاء الجزائري، ثم الدراية والخبرة وتقديم أسباب تهيئة الاحتلال.

وقوله كذلك عن خادمته اليهودية "آرييل"، "هل تدرك يا سيدي أن نصف النصر الذي حققته فرنسا كان بفضل هذه الساحرة؟"²⁰. إنّ توظيف الجنس اللطيف في دواليب السياسة وأنظمة الحكم جزء من المكر والدهاء في العقلية اليهودية؛ أين يتم تسخير كل الوسائل خاصة السرية والناعمة منها، للوصول إلى المبتغى؛ فاليهودي يكيّف خططه ومشاريعه، بعد تشريح تام للإنسان العربي ومتطلباته، وسلبياته.

بالإضافة إلى مباركة الانتصار الفرنسي، وتقديم الهدايا الثمينة، مثل الهدية التي قدمها "كوهين" إلى الجنرال الدوق "دو روفيجو" والمتمثلة في سيف مصنوع من معدن نادر، ومنقوش بخيوط ذهبية وحجارة كريمة. والدعوة إلى الوليمة، يقول "كوهين" مُباركاً النصر الثمين لفرنسا: "إنه عشاء على شرفك سيدي، احتفالا بهذا النصر الملحمي". ثم هدايا للجنرال تريزيل بعد تعيينه خلفاً للجنرال دي ميشيل، "كان كوهين يلح في مقابلته، وهو يحمل إليه هدايا ثمينة باسم كل يهود المدينة"²¹. لطالما كانت لعبة الأموال هي السبيل الرئيسي لليهود في التقرب من بلاط الحكام وقصور الزعماء، سواء عبر الهدايا الإغرائية، أو عبر منح قروض ربوية في حقب الأزمات والضوائق المالية. إنّ منطق اليهود يقوم على المال، التجسس، شراء الذمم والضرائب وإفساد المهم، والعمل الدؤوب من وراء الستار.

4- ازدراء الجنس العربي:

تناسب تطلعات اليهود للحكم والسيطرة والاستبداد مع نظرتهم الدونية للأجناس الأخرى غير اليهودية، خاصة الجنس العربي والجنس التركي، تحت وهم إيديولوجية التفوق والتفضيل الرباني، باعتبارهم شعب الله المختار، وأن هذه الأجناس غير اليهودية خلقت لخدمتهم، انتقاماً من جميع شعوب العالم الذين تسببوا -على حد زعم اليهود- في شتاتهم واضطهادهم على مدار التاريخ. ويتضح تحقير الآخر الجزائري في خطابات "كوهين" المتكررة، والتي ينصح فيها جنرالات فرنسا بالقضاء والسحق النهائي للعنصر العربي.

لا يقتصر وصف كوهين للجزائريين على جانب دون الآخر؛ فقد أشار إلى كافة جوانب الشخصية، فمن الناحية العقلية يسمهم بالحمق مثلما وصف شخصية "يحيى" قائد جيش "الداي حسين"، وذلك بهدف إيهام "إبراهيم آغا" بأحقية القيادة. أما من الناحية النفسية، فعناصر المقاومة لدى "كوهين" هم مجرد فئران تخشى المواجهة المباشرة، "لن نخيفنا هذه الفئران"²². وتارة أخرى هم أغبياء، "كانوا أغبياء، ضحوا بالآلاف من أجل جامع"²³، فهو يرى أن الوقوف ضد فرنسا رغم علمهم بقوتها وجبروتها وانتصارها في نهاية المطاف نوع من الغباء والبلادة، وليس ضرباً من ضروب الشهامة والكرامة كما يراه الجزائريون.

من جهة أخرى يطلق على شخصية "مدبب الألف" من قبائل الجزائر اسم "الخائن" بسبب تعاونه مع اليهود وفرنسا في حرب الأمير عبد القادر، ويمعن في إذلالهم بشتى العبارات الذميمة، ويقوم بتهديدهم كلما كانوا سبباً في فشل خطته الحربية؛ إذ كان يُوكل إليهم مهمة التجسس والاندفاع في الصفوف الأولى للهجمات، لمعرفتهم بتضاريس المنطقة من جهة، وللتضحية بهم في مقابل الحفاظ على أرواح الجنود الفرنسيين، وفي ذلك إشارة إلى قيمتهم المنخفضة لدى اليهود.

يتسم خطاب اليهودي "كوهين"، بالإضافة إلى الأوصاف الدينية السابقة، بالسخرية من عقائد العرب المسلمين الجزائريين، وذلك فيما يتعلق بحيثيات المقاومة، يقول عن المستشهدين الجزائريين: "لكنهم لم يموتوا، بل قتلوا فقط، ولو زرت الآن جنتهم لوجدتهم جميعاً ينعمون مع نبهم بحور العين"²⁴، في إشارة إلى إيمان المسلمين بحياة الشهيد وعدم تجرعه لمرارة الموت مثل باقي الموتى؛ فالازدراء لا يتوقف عند الجوانب العقلية والنفسية، بل يتعداه إلى الأبعاد الإيديولوجية العقائدية.

إن المتمعن في خطابات "كوهين" ضد العنصر العربي الجزائري، يجد أنها تضع أنصار الاستعمار (الخنونة) ورافضيه من العرب والمسلمين في خانة واحدة، هي الانتقاص والازدراء والتهمك، وهذا ما ينبأ بعدم منطقية هذه الأحكام، وقربها من منطق المصلحة والرغبة اليهودية منها إلى الحقيقة الواقعية، ولعل نوعية الخطاب جزء لا يتجزأ من مقتضيات الحرب، التي تقوم على بلورة التمثيلات وقولبتها وفق ما يخدم منطق الغالب، وعجز المغلوب عن الرد بالتمثيل المضاد.

خاتمة:

بعد هذه القراءة المتواضعة لرواية "عناق الأفاعي"، وتجريد أهم ملامح الشخصية اليهودية، يمكن الوصول إلى النتائج التالية:

- تستعيد رواية "عناق الأفاعي" النموذج الأولي للموقف الروائي المتمثل في "شيطنة الشخصية اليهودية" - بعيدا عن المواقف المعتدلة لصورة اليهود المشاركة بداية من مطلع الألفية الثالثة - واعتبارها مصدرا للشروع والأزمات العالمية، وحجر أساس في السيرة التاريخية للأحداث على الصعيدين الواقعي/الأدبي، أين نلمس خطاب أدبيات أوروبا ضد اليهود، خاصة مع شكسبير.

- تقدم الرواية وصفا مُغرقا للشخصية اليهودية ممثلة في اليهودي "كوهين"، من خلال التركيز على صفات مذكورة (الانتشاء، الحذر، الجشع) أو صفات يمكن استنتاجها من سياق الخطاب، مثل (المداهنة، المراوغة، المكر، الخداع...)، على الرغم من بعض الإيجابيات، التي يتم توظيفها في دعم السلبيات، كالخبرة والذكاء. كما قدم الروائي وصفا موجزا لشخصية يهودية أخرى هي "آرييل" التي اشتغلت بمثابة مساعد على إنجاز البرنامج السردى اليهودي، تظهر على مستوى عال من الذكاء والجمال، لتناسب الأدوار الموكلة لها، كالتجسس، ونقل الأخبار، والإغراء وغيرها.

- اعتمد النص الروائي تطابق تام بين ماهية الشخصية من الناحية الشكلية /العقلية/النفسية، وبين برنامجها السردى، ووظيفتها في تحويل المسارات، وخلق ديناميكية الأحداث، عبر التدخل الفعّال في مُجمل العقد السردية، لتظهر بذلك عبقرية الشخصية اليهودية من جهة، وعبقرية الروائي في رسم ملاحظاتها دون الوقوع في مزلق السرد التسجيلي المرجعي من جهة أخرى.

- تظهر شخصية اليهودي ذي الحركة النشيطة والعبقرية الفذة، من خلال قدرته الفائقة على الانسجام والاندماج في مجتمعات هجينة، وفي حقبة تاريخية يغلب عليها طابع الصراع، وسهولة تحولها من موقف المساند إلى المعارض، وفقا للسياق الغالب على البيئة السياسية، والثبات الاقتصادي اليهودي.

- خلقت فكرة التعارض بين خطابات الشخصية اليهودية، وبين خطابات الشخصيات الأخرى، حركة تاريخية قائمة على نط متداخل من الصراع في سياق تاريخي/عسكري/سياسي، أسهم في دفع عجلة الحدث السردى وفق تباين واضح في المسارات، وتكثيف للعقد السردية، مع حضور دائم لمنطق الشخصية اليهودية.

- تتسم خطابات الشخصية اليهودية بنوع من الازدواجية الخادمة لمنطق الرغبة والمصلحة؛ أين يتجلى الأسلوب السياسي المتسم بالمداهنة والولاء تجاه القيادة الفرنسية، في مقابل أسلوب الازدراء والتبخيس والانتقاص تجاه العناصر العربية والتركية، مما يؤكد على العبقرية اليهودية في تكيف أنماط الخطاب بما يتناسب مع السياق التاريخي/الواقعي، ورغبات الهيمنة والحفاظ على الموقع.

هوامش:

- ¹ شخصية يهودية، اسمه الكامل "ابن زهوط بكري" أو "ابن زقوطة" أو "ميشال كوهين بكري" Michel Cohen-Bacri وهو الاسم الأكثر شيوعاً، قدم العاصمة الجزائر سنة 1774 ثم التحقت به عائلته، بدأ في بيع الخردوات، ثم نمت تجارته لينافس يهود المدينة، وصولاً إلى منافسة الشركات الفرنسية في ظرف وجيز. أنظر: فوزي سعد الله، 2004، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ط2، الجزائر، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، ص 233.
- ² فيليب هامون، 2012، سميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بن كراد، الجزائر، دار كرم الله للنشر والتوزيع، ص 08-07.
- ³ عز الدين جلاوي، 2021، عناق الأفاعي، الجزائر، دار المنتهى للنشر والتوزيع، ص 431.
- ⁴ المصدر نفسه، ص 93.
- ⁵ سعد البازعي، 2010، قلق المعرفة، إشكاليات فكرية وثقافية، ط1، الدار البيضاء المغرب، المركز الثقافي العربي، ص 224.
- ⁶ الرواية، ص 205.
- ⁷ المصدر نفسه، ص 410.
- ⁸ المصدر نفسه، ص 567.
- ⁹ ARSENE BARTHEUIL, 1856, L'Algérie Française, Paris, Dentu Librairie, P 145.
- ¹⁰ الرواية، ص 78.
- ¹¹ عبد الوهاب المسيري، 2001، اليد الخفية، دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، ط2، مصر، دار الشروق، ص 12.
- ¹² فوزي سعد الله: يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ص 128.
- ¹³ الرواية، ص 82، 83.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص 209.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص 91.
- ¹⁶ داود عبد العفو سنقرط، اليهود في المعسكر الغربي، الجزائر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص 25.
- ¹⁷ الرواية، ص 112.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 319.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص 126.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص 175.
- ²¹ المصدر نفسه، ص 321.
- ²² المصدر نفسه، ص 97.
- ²³ المصدر نفسه، ص 155.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص 156.

قائمة المراجع:

1- الكتب:

- فوزي سعد الله، 2004، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ط2، الجزائر، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.
- فيليب هامون، 2012، سميولوجية الشخصيات الروائية، تر: سعيد بن كراد، الجزائر، دار كرم الله للنشر والتوزيع.
- عزالدين جلاوي، 2021، عناق الأفاعي، الجزائر، دار المنتهى للنشر والتوزيع.
- سعد البازعي، 2010، قلق المعرفة، إشكاليات فكرية وثقافية، ط1، الدار البيضاء المغرب، المركز الثقافي العربي.
- ARSENE BARTHEUIL, 1856, L'Algérie Française, Paris, Dentu Librairie.
- عبد الوهاب المسيري، 2001، اليد الخفية، دراسة في الحركات اليهودية الهدامة والسرية، ط2، مصر، دار الشروق.
- داود عبد العفو سنقرط، د.ت، اليهود في المعسكر الغربي، الجزائر، دار الثقافة للنشر والتوزيع.